ساعات في هياكل الشعراء — ١

ايليا ابو ماضي

ليوسف البعيني

مسحةٌ ضافية من التفكير، وتأمّلٌ عميق بعيد القرار، ورباطٌ شجي عذبُ الأنغام، وخيالٌ مزهرٌ يشدُّ أطنابه الى النجوم ويبسط ظلاله على مدى الأفق . . . كلُّ هذا نلمسهُ الروح وهي تتهادى مع — أبي ماضي — في ذرى الشعر، وفوق متون سحابه

إنما الشاعر العبقري — ايليا أبو ماضي — لونٌ زاهٍ نضير لا يمتزج مع غيره من الألوان، ومزيّةٌ غريبة تختلف عن جميع المزايا . . . وهي تلك النسمة المبتكرة التي تسمع في قراراتها أعذبَ ما تتناقلهُ النفس، وأطربَ ما تحلمُ به القلوب والأرواح!

ما من مرّةٍ قرأتُ بها — أبا ماضي — الا حملتني أبياتهُ المبتكرة الى عالمٍ بعيد كلهُ روعة وأحلام . . . عالمٍ حافل بالصور يفتح للمخيلة مغالقَ الابهام، ويسكبُ في مراشفها الظامئة خمرة الشوق والحنين والتذكار

وحسبكَ أن تقرأ قصيدةً واحدة لهذا الشاعر المبتكر المجدّد حتى تنسى يأسك ان كنت يائساً، ودموعك إن كنت باكياً، وكآبتك الخرساء ان كنت كئيباً . . . أقول هذا لأن صاحب « الجداول » تجثم في صدره أسرارٌ علوية مروّاة بندى الحكمة ومهفهفة بنسيم الحياة ومعانيها فانّ من تتفق أكثر شاعريته عن مقاطعَ ساحرة كهذه المقاطع

مات النهارُ بنُ الصباحِ
فلا تقولي كيفَ ماتَ،
إن التأملَ في الحياةِ
يزيدُ أوجاعَ الحياةْ

لينَ خوالجَ روحهِ موحية سموية تستفطر الوحي من أجواء مجهولة ثم تسيله في كأس

معطرة اذا لامستها شفاهُ الصبوفي المتأمن عمرتهُ نشوةٌ من الاحلام شبيهةٌ بضباب الفجر قبل أن يمسهُ شعاع الشمس ، أو وهج الضحى ! !

***

كان من محاسن التجديد ومن نعمه ، بعد انشاق فجر جماله وتأرُّج أزاهير ربيعه ... كان من بعد كل ذلك ان يتقظ الشعراء وتنبه الملهمون الى ابتداع ناحية جديدة في الأدب ترضي الذوق الانساني الشامل وتؤجج في العاطفة الطافرة المتوثبة شعلتها الزافرة . وقد فعل الشعراء مرتادين جميع أودية الفن . . . فمنهم من توغل في سراديب القلب المظلمة مستخرجاً منهُ ميوله وأحلامه ، ومنهم من جلس على شاطىء بحر الحياة مصغياً الى همس أمواجه المزبدة . ولكن قلما أبدع شاعرٌ من شعراء العربية ، على كثرتهم ، بتصوير موقف المتردد في آخر ساعة من ساعات حياته . . . ثم قلما أبدع شاعرٌ رسم نفس موحشة ، كئيبة ، مثالة غابت نظراتها المتيهة في لجج الموت كما أبدع — ايليا أبو ماضي — بتشخيص كوامن قلبه في قصيدته الخالدة — ابنة البحر — ولو لم يكن لأبي ماضي من شعر سوى هذه القصيدة لكفى بها حتى تضمهُ أسمى المراتب في دولة الوحي والالهام . قال :

أنا ان أغمضَ الحمام جفوني ودوى صوت مصرعي في المدينه
لا تصبحي وا حسرتاه لئلاّ يدركَ الساموتُ ما تضمرينه
واذا زرتيني وأبصرتِ وجهي قد محا الموتُ شكلهُ وبقيته
غالبي اليأس واجلسي عند نعشي يمكنِ اني أحبُّ الكنيه
واذا خفت أن يثور بك الوجدُ فتبدو أسرارنا المكنونه
فارحمي وابكي دموعك سرًّا واسمحي بالبين ما تكنينه

***

واذا ما وقفتِ عند السواقي وذكرتِ وقوفهُ وسكونه
حيثُ حاكَ الربيع للروض ثوباً كان أحلى لديه لو ترتديه
قالتي كلّ زهرةٍ فيه اني كنت أهوى أزهاره وغصونه
ثم قولي للطير مات حبيبي فلماذا يا طير لا تبكينه ؟

***

أنا لا أعرف بين شعراء العربية في مختلف أدوارهم من انحى هذه الناحية الوجدانية في تصوير العواطف ، وتفطير الشعور والاحساس قادراً ان يعطي الناس صورةً مؤثرة كهذه الصورة

الساحرة بخطوطها وألوانها وما يُنعمها من حرفة وسرارة . . . وكنت أعتقد قبل اليوم ان الشاعر الخالد — الفريد دي موسّه — في قصيدته الجميلة « تذكري » لم يترك لسيره مجالاً لكي يكتب أشاره بدم فؤاده . ولا أغالي اذا قلتُ ان (ابنة الفجر) تفح من النفس موقعاً مؤثراً أكثر من قصيدة الشاعر الفرنسي الكبير . واني لأذكر الآن كلمة كتبها اليّ أديبٌ غربيٌّ ممتن بعد ان أطلعته على الأبيات التالية ، وهذا الأديب هو الشاعر المشهور — جان دي لا هيرّ — الذي أحبّ الشرق حبًّا لا شائبة فيه :

واذا ما جلستِ وحدك في الليل وهاجت بكِ الشجون الدفينه
ورأيتِ النجومَ تركضُ نحو الغر ب ركضاً كأنها مجنونه . . .
ولحظتِ من الكواكبِ صدًّا وتفاراً ، وفي النسيم حنينه
فنضيت على الليالي البواقي وحنقتِ الى الليالي الثمينه
فاهجري المخدعَ الجميلَ وزوري ذلكَ القبرَ ثم حيي قطينه
وانثري الوردَ حولهُ وعليه واغرسي عندَ قلبه ياسمينه

***

أما كلمة الشاعر الغربي فهي هذه :

« إنّهُ تشلني ، بل تحملني على أجنحة الهيولى ، هذه النغمةُ الشجيّة المتلفة بأسرار الشرق واحلامه ... وكلُّ ما في الروح الشاعرة من هوى ، وخشوع ، وتمرُّد تبخترتْ به ريشة (أبي ماضي) الممطرة في هذا المقطع الساحر الذي أطلعتني عليه . فهل في الشرق ، بين خرائبه الرهيبة ، وفي ظلال امجاده الدهرية ، شعراء آخرون يشاركون — ايليا أبي ماضي — في تنغيم موحياته وانشاد روائعه المبطّنة برقائق النفس السامية وبأمانيها ؟ »

***

وعندي انّ هذه القصيدة الخالية هي من أجود ما جاءت به مخيلات الشعراء ، القدماء منهم والمحدثين . وانّ مانيها من أسى مذيب ، ويأس مميت ، وسرارة سوداء ، وقنوط جارح ... ان كلّ ما فيها من هذه الالوان والميول ليشبهُ مأتماً من مآتم الارواح ، او مناحة من مناحات القلوب . ولكن — أبا ماضي — على الرغم من كل ذلك أمسى اليوم لا يميل الى هذه الطريقة الوجدانيّة المؤثرة إلاّ إلماماً مختصراً عليها التوغلَ في كهوف الفلسفة الصوفيّة بما فيها من فكر عميق واشكال متعددة الأدمغة والأصماغ . وأنا اعتقد ان الاعوام الآتية وراء الاعوام السائرة وراء اشباح

الموت هي التي جنحت بالشاعر البيقري الى اعتناق جوهر الحياة وتأدية رسالتها العلوية

إن الشاعر المبدع ، لا الشاعر الزائف المقلد ، عندما يتجنح شعوره ، ويختمر احساسه ، يتغير لون أحلامه ويتخذ امام رؤياه اصداء مختلفة فتسمي اشجار صدره كشجرة الحقل وقد قاربت زمن القطاف ، او كالسنبلة وقد تهيأت للحصاد ... وعلى هذا المثال يحدث للشاعر الملهم الموهوب . وايليا ابو ماضي في قصيدته — الطلاسم — يشبهُ اغراس الطبيعة المتفتحة بالجنى والاثمار . ومثل الجدول المنساب الذي يوقع خريره الحنون على الحصى والاعشاب وهو تساؤلهُ الغامض المبهم عن اسرار إنسيابه ... هكذا يتساءل ابو ماضي عن معاني حياته ، حياته المسيّجة بأشواك التأمل والمحجوبة بضباب الاماني فهو يقول :

جئت ، لا أعلمُ من أينَ ، ولكني أتيتُ
ولقد أبصرت قدامي طريقاً فمشيت ...
وسأبقى سائراً ان شئت هذا ام أبيت
كيف جئت ، كيف أبصرت طريقي ؟
لست أدري ...

***

ان في صدري يا بحر لاسراراً عجابا
نزلَ السترُ عليها وأنا كنتُ الحجابا..
ولذا ازداد بُعداً كلما ازددتُ اقترابا
وأراني كلما اوشكتُ ادري
لست ادري ....

***

ان هذا التساؤل عن غوامض الحياة هو الحياة ذاتها . وقد سبق للشاعر الانجليزي الساخر المتهكم — توماس هاردي — ان نظم قصيدة رائعة تتناسب مع طلاسم الشاعر اللبناني . ولكن — هاردي — ختم ملحمته بهذا المعنى . انّ لذة الحياة في جهل اسرار الحياة ومكنوناتها — وهذا المعنى على ما فيه من شاسع النظر ومن تقليد لسر الخيّام ومحاكاة أيقورسية محنة يدلُّ على قصور الفكر ووهنه امام فلسفة الوجود . اما ابو ماضي فقد اقترب من كنه الموضوع بهذه الابيات وهو يعبّر بها عن حقيقة الحياة

هيَ في رأسي فكرٌ ، وهي في عينيَّ نور
وهيَ في صدري آمـــالٌ ، وفي قلبي شعور
وهي في جسمي دمٌ يسرب فيهِ وبعور

***

ولايليا ابي ماضي ناحية بشها في الشعر العربي مع اخوانه اعضاء — الرابطة القلمية — وهي تلك الناحية التي نصبت مضاربها في الغرب عصبة ادبية راقية تألفت في الجيل الماضي تحت رعاية الشاعر الناثر — تيوفيل غوتيه — ومن يقلب صفحات « الجداول » يرى بين ابياتها ما يؤكد صحة قولي !

لقد طالعت أخيراً مقالاً طويلاً لاديب عربيّ مشهور ينتقدُ فيهِ الكاتب البلجيكي الكبير — موريس مارلنك — ونثهُ الرمزي الذي يوشّح صفحات كتابهِ (حياة النحل) حتى لكأنهُ يريد ان يحذّر الناشئة الجديدة في الشرق العربي من شرّ هذا الفن الغريب عنا بميوله ومقاصده وقد غاب عن هذا الاديب أن الشرق عرف الفن الرمزي في كتب انبيائه الاولين.. وهو على مافيهِ من جمال يعبّر عن الحياة تعبيراً صادقاً ويأتي بالمعاني السهلة المثال. فلنقرأ معاً هذا المقطع الصغير بحجمهِ، الكبير بمعناه. وقد توجّهَ صاحبُ الجداول بعنوان — الغدير الطموح —

قالَ الغـــديرُ لنفسهِ يالَيتني نهرٌ كبيرْ
مثلَ الفرات العذب او كالنيل ذي الفيض الغزير
تجري السفائن موقراتٍ فيـــهِ بالرزق الوفـــير
حيات يرضى بالحقـــير من الفتى إلاّ الحقـــير
والنـــابُ نحوَ النهر لا يلوي على المرج النضير
حتى اذا ما جاءهُ غلب الهدير على الخرير

***

إن صاحب الجداول شاعر كبير يخترق شعوره سجف الليالي والايام ومفكر ذو فكر محسوس بكهرباء اليقظ والاستجداد. ولا شك عندي ان منظومات هذا الشاعر الخالد سوف تهدم أسوار التقيد والجمود تاركةً من حجارتها تمثالاً لربة الوحي والالهام. وأنا لا أختم هذه المقالة بعاطفة صادقة بمازجها التقدير والاعجاب بشعره العذب المخضب بنضرة الروح، والمحتفل بلون الحياة !